

دور القبائل في حركة القوافل عبر الصحراء
The Role of Tribes in Facilitating Trans-Saharan Caravan Trade

رباب علي آدم بوفرده¹

^{1*} Rabab Ali Adam Bufarda

¹ قسم التاريخ، الأكاديمية الليبية للدراسات العليا، ليبيا.

¹Department of History, Libyan Academy for Postgraduate Studies, Libya.

نشر الورقة: 2026-06-02

قبول الورقة: 2026-05-20

استلام الورقة: 2026-04-22

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة دور القبائل في حركة القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى خلال العصر الوسيط الإسلامي (القرن الثاني-الخامس الهجري/الثامن-الحادي عشر الميلادي)، والكشف عن إسهاماتها في ربط شمال إفريقيا ببلاد السودان. وتتناول الدراسة أدوار القبائل في تربية الإبل والخيول، وتوفير خدمات الإرشاد والحماية، والمشاركة في الوساطة التجارية وتجهيز القوافل وتمويلها. واعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي من خلال دراسة المصادر التاريخية والجغرافية وكتب الرحلات. وتوصلت الدراسة إلى أن القبائل شكلت عنصراً أساسياً في استمرارية التجارة الصحراوية، حيث أسهمت في تنظيم حركة القوافل وتأمين طرقها، مع وجود بعض الممارسات السلبية كالإغارة وفرض الإتاوات. وتؤكد الدراسة أن العلاقة بين القبائل والتجارة العابرة للصحراء كانت علاقة متبادلة أسهمت في ازدهار النشاط الاقتصادي وربط المراكز التجارية في المغرب الإسلامي ببلاد السودان. الكلمات المفتاحية: القبائل، القوافل التجارية، التجارة العابرة للصحراء، الصحراء الكبرى.

Abstract

This research aims to examine the role of tribes in trans-Saharan caravan trade during the Islamic medieval period (2nd–5th AH / 8th–11th AD centuries) and to highlight their contributions to connecting North Africa with Bilad al-Sudan. The study explores the various roles played by tribes, including camel and horse breeding, providing guidance and protection services, and participating in commercial mediation, caravan preparation, and financing. The research adopts a historical analytical approach based on the study of historical and geographical sources as well as travel accounts. The study concludes that tribes represented a fundamental element in the continuity of trans-Saharan trade by organizing caravan movements and securing trade routes, despite the existence of some negative practices such as raids and the imposition of tributes. It also confirms that the relationship between tribes

and caravan trade was reciprocal, contributing to economic prosperity and linking commercial centers in the Islamic Maghreb with Bilad al-Sudan.

Keywords: Tribes, Caravan Trade, Trans-Saharan Trade, Sahara Desert.

المقدمة

يشكل تاريخ التجارة الصحراوية في العصر الوسيط الإسلامي أحد أهم الموضوعات التي تكشف عن عمق التفاعل الاقتصادي والاجتماعي بين شمال إفريقيا وبلاد السودان. ولم تكن الصحراء الكبرى في هذه المرحلة فراغاً جغرافياً ولا حاجزاً حلالاً دون الاتصال، بل كانت مجالاً حيوياً للتواصل التجاري والثقافي، تربط بينه قوافل تجارية كبرى تنقل الذهب والملح والرقيق والعاج والمنسوجات وغيرها من السلع.

وقد لعبت القبائل العربية والأمازيغية والصنهاجية والزناتية والطوارق والتبو وغيرها دوراً محورياً في هذه الحركة، إذ لم يقتصر دورها على تربية الإبل والخيول، بل امتد إلى العمل أدلاء وحراساً ووكلاء تجاريين وممولين ومجهزين للقوافل. ومن هنا تكتسي دراسة دور القبائل في حركة القوافل عبر الصحراء أهمية خاصة، لأنها تكشف عن البنية الاقتصادية والاجتماعية للعصر الوسيط الإسلامي، وعن علاقة القبائل بالدول والمدن التجارية والأسواق الصحراوية.

ويهدف هذا البحث إلى تحليل هذا الدور في أبعاده المختلفة: الاقتصادية والأمنية والوسيطية والتنظيمية، من خلال ما تضمنته المصادر الجغرافية والتاريخية والرحلات من معلومات عن القبائل ومسالك القوافل ومحطاتها وبضائعها وتكاليفها ومخاطرها.

2- الإشكالية

تتلخص إشكالية البحث في السؤال الرئيس الآتي:

ما دور القبائل في حركة القوافل التجارية عبر الصحراء خلال العصر الوسيط الإسلامي، وخاصة في الفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي؟

ويتفرع عن هذا السؤال الرئيس عدد من التساؤلات الفرعية:

1. كيف أسهمت القبائل في تربية الإبل والخيول وتوظيفهما في حركة القوافل؟
2. ما الأدوار التي اضطلعت بها القبائل كأدلاء وحراس للقوافل التجارية؟
3. كيف عمل أفراد القبائل كوكلاء تجاريين ووسطاء بين تجار الشمال وبلاد السودان؟
4. ما طبيعة مشاركة القبائل في تجهيز القوافل وتمويلها وتنظيم مسيرها؟
5. هل كان دور القبائل إيجابياً داعماً لحركة التجارة، أم سلبياً من خلال الإغارة وقطع الطريق وفرض الإتاوات؟
6. كيف تعاملت القوافل مع السلطات القبلية والدولية على طول الطرق الصحراوية؟

3- أهمية البحث

تتجلى أهمية هذا البحث في النقاط الآتية:

الأهمية العلمية: يسهم في سدّ ثغرة في الدراسات التاريخية التي تتناول دور القبائل في الاقتصاد الصحراوي، ويربط بين التاريخ القبلي وتاريخ التجارة.

الأهمية الاقتصادية: يوضح كيف كانت القبائل فاعلاً أساسياً في تنظيم التجارة العابرة للصحراء، من نقل البضائع إلى تأمين الطرق وتوفير الوساطة التجارية.

الأهمية الاجتماعية: يكشف عن مكانة القبائل الاجتماعية والسياسية، ودورها في تشكيل خريطة النفوذ في الصحراء والمغرب الإسلامي.

الأهمية المنهجية: يعتمد على مقارنة تكاملية بين المصادر الجغرافية والتاريخية والرحلات، مما يثري الدرس التاريخي حول العصر الوسيط الإسلامي.

الأهمية المحلية: يسلط الضوء على قبائل لها حضور مباشر في الصحراء الليبية والمغرب الإسلامي، مثل زناتة، صنهاجة، هواره، لواتة، الطوارق، والتبو.

4- أهداف البحث

يهدف البحث إلى:

1. تحديد الأدوار المتعددة التي أدتها القبائل في حركة القوافل التجارية عبر الصحراء.
2. دراسة علاقة القبائل بتربية الإبل والخيول باعتبارهما وسيلتي النقل والحماية.
3. تحليل وظائف الأدلاء والحراس في تأمين القوافل وتنظيم مسيرها.
4. بيان دور الوكلاء التجاريين من أفراد القبائل في الربط بين أسواق الشمال وبلاد السودان.
5. الكشف عن كيفية تجهيز القوافل وتمويلها وإدارتها من قبل القبائل والبيوتات التجارية.
6. تقييم الأثر الإيجابي والسلبي لدور القبائل في ازدهار حركة التجارة الصحراوية أو تعطيلها.
7. إبراز العلاقة بين القبائل والدول والمدن التجارية في العصر الوسيط الإسلامي.

5- الضبط الزمني

يقتصر البحث على الفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وهي فترة تمثل أحد أهم أطوار العصر الوسيط الإسلامي في شمال إفريقيا والصحراء الكبرى.

وقد اختير هذا الضبط الزمني للأسباب الآتية:

- القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي: يمثل مرحلة الاستقرار الإسلامي في المغرب الإسلامي وبداية انتظام حركة القوافل التجارية عبر الصحراء نحو بلاد السودان.
- القرن الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين: شهدت ازدهار الدول المستقلة، مثل الرستمية والأدارسة والفاطمية، واتساع التجارة الصحراوية، وظهور مراكز تجارية كبرى مثل تاهرت، وسجلماسة وزويلة وغدامس وفزان.

- القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي: يمثل مرحلة تحول كبرى مع تصاعد الحركة المرابطية والصنهاجية، وإعادة تشكيل النفوذ القبلي على طرق التجارة الصحراوية.
- أما ما قبل القرن الثاني الهجري، فيمثل طوراً تمهيدياً يختلف في بنيته السياسية والاقتصادية، وما بعد القرن الخامس الهجري، فيدخل في طور مغاير ارتبط بتحويلات سياسية وتجارية جديدة. لذلك اقتصر البحث على هذه الفترة الزمنية لرصد الدور القبلي في حركة القوافل بدقة.

6- الحدود المكانية

يمتد نطاق البحث مكانياً ليشمل:

المغرب الإسلامي (شمال إفريقيا): ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب.

الصحراء الكبرى ومسالكتها التجارية.

بلاد السودان الغربي والأوسط، باعتبارها المجال الحيوي لتجارة القوافل.

7- المنهج المتبع

يعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال جمع المادة التاريخية من المصادر الأصلية، وتحليلها ومقارنتها، واستخلاص النتائج المتعلقة بدور القبائل في حركة القوافل. كما يستفيد البحث من المنهج الوصفي في عرض الظواهر التجارية والقبلية، ومن المنهج المقارن عند تعدد الروايات أو اختلاف المصادر.

بهذه العناصر يصبح البحث مؤطراً تأطيراً منهجياً واضحاً: مقدمة تحدد الموضوع، وإشكالية تطرح السؤال الرئيس، وأهمية تبيين القيمة العلمية، وأهداف ترسم الغايات، وضبط زمني ومكاني يحددان مجال الدراسة

8- الاطار النظري

- تربية الأبل.
- تربية الخيل.
- الأدلاء والحراس.
- الوكلاء التجاريون.
- تجهيز القوافل.

أثر ظهور الجمل في شمال الأفريقي تأثيراً كبيراً على أهل البلاد إذ مكّتهم من توسيع مجال نشاطهم، ما شتمل صحاري بلادهم، علاوة على الصحراء التي تفصل بلادهم عن بلاد السودان، وبانت الحياة متاحة في هذه الصحاري، وأعيدا استغلالها، فأضحت مناطق نفوذ لأهل الشمال الإفريقي (محمود، 1957، ص 24-25)، بعد أن كانت مجاهل يخشون طرقها، وعازلاً يفصل بينهم وبين التعامل مع بلاد السودان، أعانت الإبل أهل الشمال الإفريقي على التجارة مع بلاد السودان، حيث جلبوا منها بضائع تكالبت دول العالم الإسلامي والعالم المسيحي من أجل الحصول عليها، ومن ثم حققت لأهل الشمال الإفريقي قدراً كبيراً من الثراء، وحققت

القبائل التي أسهمت في حركة القوافل وشاركت فيها بنصيب سلباً أو إيجاباً ثروات أعانت المحتاج على شغف العيش وصعوبة الطبيعة وقسوتها، وأسبغت على قبائل أخرى من النعيم ما مكنهم من اقتناء القصور والضباع وخيل الركوب (ابن الصغير، د.ت، ص 324-325). لذلك يمكن الجزم بأن دخول الإبل الشمال الإفريقي، واقتناء القبائل لها وتربيتها والإكثار منها صاحب هذا الفضل الواسع على أهل شمال إفريقيا، والمعين الذي تهلت منه الدول المستقلة التي ظهرت في المغرب آنذاك لتحافظ على بقائها من محاولات القضاء عليها. ولأهمية الإبل اهتمت بعض القبائل بتربيتها، واستنتاج أفضل أنواعها، لتكون سفينة الصحراء ووسيلة اجتيازها، ونقل البضائع عبرها، وأسهمت القبائل بذلك من حركة التجارة (ابن الصغير، د.ت، ص 235).

احتاجت حركة القوافل للإبل كوسيلة للنقل، ولم يغنها ذلك عن الخيل كوسيلة لحماية القوافل، وعنيت القبائل بتربية الخيل كأداة فعالة لكسب العيش، منهم من استغلها للإغارة وقطع الطريق وفرض الإتاوات على القوافل، ومنهم من اشتغل بحماية القوافل كحراس وأدلاء.

ولم يقف دور القبائل في حركة القوافل على وسائل النقل والحماية، وإنما عمل أفراد منهم كوكلاء تجاريين للتجار القادمين من الشرق والأندلس، وعمل آخرون وكلاء تجاريين لقبائلهم أو للتجار الكبار في تجارتهم مع بلاد السودان، وكذلك شاركت قبائل بأموالها في إعداد القوافل التجارية.

1. تربية الإبل.

أهتمت بعض قبائل المغرب بتربية الإبل واقتنائها لأنها جمعت بين الفائدة الاقتصادية والوجاهة الاجتماعية وذلك لقول ابن خلدون: "أن الإبل معاش المعتزين أهل الانتجاع والأضعان" (ابن خلدون، د.ت، ص 79).

وأهمية الإبل الاقتصادية تتجلى في إسهامها الواسع في حركة التجارة بالشمال الإفريقي، مما جعل أحد الباحثين أن يقرب بين هيمنة بيوتات تجارية على حركة التجارة وبين امتلاكهم للإبل (الأبيض، د.ت، ص 23).

ولاحراء في ذلك لأن التجارة في الشمال الإفريقي بينه وبين بلاد السودان اعتمدت على قوافل الإبل (زكي، د.ت، ص 10)، وأكثر القبائل اهتماماً بتربية الإبل وإملاكها واستنتاج أفضلها في المغرب كانت قبيلة زناتة التي هاجرت من المغرب الأوسط إلى ليبيا إثر الضغط الفاطمي وأسست إمارة زناتية في ليبيا سبقت الإشارة إليها في الفصل الأول، أما في الصحراء الكبرى فكانت قبائل صنهاجة (ابن خلدون، د.ت، ص 301)، وتواترت الأخبار عن اهتمام زناتة بتربية الإبل، وحازت السبق في امتلاكها وحذقت في تربيتها، فكانت لها اليد العليا في الهيمنة على حركة القوافل خاصة والتجارة عامة (الجوهري، د.ت، ص 165).

فإليها يعزى ظهور الجمل في شمالي إفريقيا، حيث بدأ ظهوره مع نزوح قبيلة زناتة من مناطق أستبس الصحراء الكبرى صوب الشمال منذ عصر الرومان (أولفير، د.ت، ص 65)،

ومكنتهم الإبل من فتح طريق القوافل عبر الصحراء. لقدرة الإبل على السير في الأراضي الرملية، وتحمل مناخ الصحراء وجفافها، فلا تغوص أرجل الإبل في الرمل مثل غيرها من دواب الحمل والركوب، ناهيك عن قدرتها على تحمل الجوع والعطش (السياني، د.ت، ص 526)، فالجمل يمكنه مواصلة العمل لمدة عشرة أيام دون ماء (بوفيل، د.ت، ص 51).

أهت قبال أخرى بتربية الإبل، وخاصة القبائل الضابة على طرف التجارة العابرة للصحراء، وشاركت بذلك في ازدهار التجارة، مما أمدت القوافل بوسيلة نقل البضائع، ونظراً لأهمية مدينة تاهرت عاصمة الرستميين التجارية أهت أهلها والقبائل الضارية حولها بتربية الإبل حيث أمست أهم ماشية المنطقة (القلقشندي، د.ت، ص 113).

ومن هذه القبائل قبيلة لواتة التي كانت تعتمد على التنقل والترحال بشكل كبير وساعدها على ذلك تربيتها للإبل، حيث امتدت هذه القبيلة من إقليم طرابلس وجبل نفوسة وزويلة وكوار وبذلك فهي ساهمت مع الأزدهار الذي شهدته المنطقة (الدرجيني، د.ت، ص 81).

أهت أهل جبل نفوسة وخاصة قبيلة هواره التي اضطرت للرحيل إلى زويلة وتأسيس إمارة بنى الخطاب فيها سنة (306هـ/918م) وبذلك سيطرو على تجارة الرقيق فملكوا أعداداً كبيرة من الإبل للتجارة مع بلاد السودان (اليعقوبي، د.ت، ص 336)، ولا عجب لأن زويلة كانت كثيرة التجارة، ونال أهلها الثراء ورفاهية العيش، حيث يذكر الإدريسي قبيلة هواره "وهم أملاء مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة (الإدريسي، د.ت، ص 232).

وكانت القبائل الجرمانية الليبية قد ارتبطت مع سودان الأوسط وعلى رأسها قائم بعلاقات تجارية، وصادت هذه القبائل وسيط تجاري بين الشمال الإفريقي وبلدان السودان، فاهتمت بتربية الإبل وبأعداد كبيرة لأن فزان كان مركزاً لتغير الدواب (مؤنس، د.ت، ص 96).

وكذلك كان أهل اعمات التي كانت كثيرة التجارة، فنال أهلها الثراء ورفاهية العيش. إذ يذكر صاحب الاستبصار بقوله "وبها ينزل التجار لأنه كانت دار التجهز للصحراء" (مجهول، د.ت، ص 207) ولا أدل على كونها مركزاً تجارياً مهماً من أن يهود تلك المنطقة شدو الرحال إليها واستقروا بها (الإدريسي، د.ت، ص 235).

سبقت قبائل البتر أقراهم من البرانس في تربية الإبل واستخدامها حتى اضطرت قبائل صنهاجة الجنوب (الملثمين) إلى النزوح صوب الصحراء الكبرى، وإذ لم يكن نزوحها دفعة واحدة، وإنما موجات متتابعة منذ قبل الفتح الإسلامي للمغرب (ابن خلدون، د.ت، ص 181).

حينئذك بدأ استخدامهم للإبل (محمود، د.ت، ص 42)، وياتوا "أصحاب إبل ونجب عتاق، رحالة لا يقيمون في مكان واحد" (الإدريسي، د.ت، ص 224). انصب اهتمام صنهاجة الجنوب على تربية الإبل، لاعتمادهم عليها كلياً في الصحراء في كل ناحية من حياتهم، فمنها مأكلمهم وملبسهم ووسيلة تنقلهم وحمل بضائعهم، والمعين على سلوك الصحراء (ابن خلدون، د.ت، ص 181). ووسيلة كسب معيشتهم بنقل المتاجر بين الشمال وبلاد السودان، ومن ثم أطلق ابن خلدون على قبيلة لمطة إحدى بطون صنهاجة أنهم طواعن أهل وبر (ابن خلدون، د.ت، ص 203)، أي أن جل اعتمادهم على الإبل.

2. تربية الخيل.

لعبت الخيل دوراً مزدوجاً في حركة التجارة، ومع القوافل التجارية بخاصة فقد اعانت القبائل التي اهتمت بتربيتها واقتنائها على العمل في حماية القوافل التجارية، مما يساعد على ازدهار وانتعاش الحركة التجارية (أحمد، د.ت، ص 199).

كما ساعدت الخيل قبائل أخرى على القيام بدور سلمي على حركة التجارة وذلك بالإغارة على القوافل التجارية وقطع الطريق، وفرض الإتاوات، فكان ذلك سبباً في غلاء البضائع التي تحملها القوافل وتراجع رأس المال في تجهيز القوافل، مما كان له الأثر الأكبر في الحد من حركة القوافل في بعض الأحيان، لذا نجد أن القبائل التي اعتنت بتربية الخيل، تقع مضاربها على طرق التجارة العابرة للصحراء ولم تهتم هذه القبائل بتربية الخيل فقط، وإنما بلغوا الغاية في استنتاج أفضل أنواعها (أحمد، د.ت، ص 200)، حتى شهد الجغرافيون بقوتها وقدرتها على التحمل وصبرها وسرعتها.

اعتنت القبائل الضاربة حول جبل أوراس بتربية أفضل أنواع الخيل؛ فتذكر المصادر أن عقبة بن نافع عندما هاجم مدينة باغاية الواقعة على الخط التجاري بين القيروان وتاهرت - غنم خيلاً كثيرة لم يرى المسلمون من غزواتهم أصلب ولا أسرع منها (ابن الرقيق، د.ت، 41. البكري، د.ت، ص 145).

تعد منطقة تلمسان منطقة الخيول الأساسية في بلاد المغرب (ابن سعد، 1953، ص 346)، وهي المنطقة التي غلبت عليها قبيلة زناتة، وبسطت سلطانها عليها، وكان جل أموال زناتة من الخيل (ابوزكريا، د.ت، ص 19). أفاضت المصادر باشتهار زناتة بتربية الخيل والفروسية (أبن خلدون، د.ت، ص 31). وأنه كان لهم بها معرفة بارعة (الأدرسي، د.ت، 258).

وظلت تلمسان على شهرتها في إنتاج الخيل حتى زمن الموحدين، ويتضح من ذلك أن الموحدين جعلوا الخيول جزءاً أساسياً من خراجها (ابن عذاري، د.ت، ص 90).

وذاع صيت تلمسان في صناعة كل ما يتعلق بركوب الخيل، حتى قيل بأن الفارس يتجهز من تلمسان (ابن سعيد، د.ت، ص 246).

ذاعت شهر القبائل الضاربة في جبل نفوسة من هواره بتربية الخيل وكذلك في زويلة وتاهرات (القلقشندي، د.ت، ص 113). وحسنت احوال وصناعاتها حتى أطلق عليها الخيل العرب (القلقشندي، د.ت، ص 113). وفي فزان حرصت القبائل الضاربة على طرف التجارة على تربية الخيل أيضاً.

ويرصد القبائل التي اهتمت بتربية الخيل، وامتلكت أعداد كبيرة منها نجد أن مضاربها جميعاً وبلا استثناء احتلت موقعاً مهمة ذات أهمية استراتيجية على الطرق التجارية الرئيسية العابرة للصحراء، ومن ثم لعبت الخيول دوراً إيجابياً حيناً وسلبياً حيناً آخر في حركة القوافل التجارية.

3. الأدلاء والحراس.

فمعلوم أن التجارة بين الشمال الإفريقي وبلاد السودان سلكت عدة طرق وأهمها طريقتين أساسيتين هما: طريق فزان برنوكاتم وطريق بجلماصة أو دغشت منحى النيجر (محمود، د.ت، ص 87)، فقد فرض الطوارق والتبو انفسهم على القوافل التجارية كأدلاء لتسير القوافل إلا بهم، ويكون هؤلاء الأدلاء من ذوي الخبرة في معرفة المسالك وأماكن المياه والمرعى وأماكن اللصوص وقطاع الطرق ومعرفة هوياتهم وانتماءاتهم القبلية، الأمر الذي يجنب القافلة الكثير من المتاعب والأخطار التي قد تتعرض لها (إسماعيل، د.ت، ص 210).

وقد يكون الأدلاء من تجار القافلة، فأصبحت مهنة الإرشاد حق مكتسب للقبائل التي تقع على طريق الصحراء، فثلث الطوارق يرشدون تجار اغدامس حتى بلاد الأبير ومن ثمة نجد طوارق الأبير هم الذين يكملون المسافة الأخرى حتى يدخلون ديار مسوقة، والتي أيضاً فرضت نفسها على القوافل العابرة كأدلاء وحماة تصحب هذه القوافل عبر مفاوز الصحراء، كذلك لم اندهر طريق المحيط الأطلسي وسلكته القوافل ومر بديار لمنونة وجدالة.

بذلك تحكمت قبائل المثلثين في حركة القوافل عبر الصحراء الكبرى، وإن قنعت بالمشاركة في نقل البضائع بين السودان والشمال الإفريقي (محمود، د.ت، ص 88)، وتأسيس مدن حازت أهمية كبيرة في حركة القوافل، إذ باتت محطات تجارية علاوة على قيام بعض الصناعات المحلية التي تحتاجها القوافل أو التعدين مثل استخراج الملح الذي كان أهم سلعة في التبادل التجاري في بلاد السودان (البكري، د.ت، ص 174؛ الإستبصاري، د.ت، ص 214؛ ابن بطوطة، د.ت، ص 680).

لقد قامت المدن الواقعة على طرق التجارة عبر الصحراء، بدورهم في حركة تجارة القوافل، بداية من الواحات المصرية التي استقبلت القوافل القادمة من الجنوب، وكذلك كانت أوجلة التي كانت تصدر الصوف والمنسوجات القطنية وهي تلتقى فيها مجموعة القوافل القادمة من مصر وطرابلس وغدامس وتوات وبلاد السودان، فهي بذلك تحكمت في القوافل التجارية فكان لازماً عليها توفير احتياجات هذه القوافل سواء من الأدلاء أو الحراس، وبذلك فإن أهل أوجلة قد نظموا حركة التجارة وضمنوا لها الأمان (معلول، د.ت، ص 166).

نجم عن ازدهار حركة التجارة عبر الصحراء أن امتلأت هذه الصحاري بالخيرات ووجدت قبائلها هنالك عملاً حققوا من خلاله ثروات كبيرة، حتى باتوا تجاراً مياسراً (بوفيل، د.ت، ص 393).

وحقيقة القول، إنه لم يكن هناك مفر من اعتماد القوافل المتجارة للصحراء الكبرى من دليل يعرف دروب تلك المفاور معرفة جيدة ودقيقة، ويكون مخلصاً علاوة على تفادي المناطق التي تغص بقطاع الطرق، ومعرفة كسر شوكتهم، وكانت الجمال عادة ما تجتمع حول الدليل دون سواه وهي أيضاً لا تتقدمه ولكن إذا سار أحد الجمال أمام الدليل فمن الأفضل أتباع ذلك الجمل فمن المؤكد أنه يعرف المكان الذي تقصده القافلة، فالجمل الذي يرعى في واحة لا ينساها مهما طاللت الأيام ولا يخطئ السبيل إليها (حسنيين، د.ت، ص 66).

ومن الطريف أنه لبعض الأدلاء عادة غريبة مع المسافرين ليحصلوا على أجرة فوق أجرتهم، وذلك أنهم إذا ما وصلوا إلى مكان عطش شرعوا في البكاء منادين «الدائم الله يا أجر الله في سبيل الله» كأنهم يثدبون ميتاً، وذلك للضغط على رئيس القافلة بدفع الزيادة وهم يستغلون معرفتهم دون سواهم من رجال القافلة بدروب الصحراء وإذا رفض رئيس القافلة أن يدفع لهم رسموا له قبراً في الرمل وبكوا فوقه حتى يدفع لهم، وهذا عادة خاصة بأدلاء بلدان جنوب الصحراء (شقيير، 1992، ص 180).

وإلى جانب خبرة الدليل توجد العديد من العلامات التي تسهل مهمة الدليل، كأن تكون بئراً أو شجرة أو وادي أو صخرة، فمثلاً توجد في معظم جهات الصحراء عددًا من الأكوام الحجرية التي قام المسافرون بجمعها وأصبحت تشكل علامات هامة لبعضها أسماء خاصة وتحول بعضها إلى مناطق استراتيجية مفضلة لدى رواد الصحراء (لايون، 1993، ص 145).

لم يقتصر دور القبائل على حركة القوافل التجارية على العمل كأدلاء إنما قاموا بحماية القوافل والمشاركة فيها، علاوة على أنهم أقاموا علاقات تجارية مع بلاد السودان في الجنوب والمدن التجارية في الشمال، حتى أن أحد الباحثين أجمل ذلك بقوله «وهممنت قبائل البدو على تجارة الرقيق لأسود المجلوب من السودان، واحتكر أهل أودغشت تجارة الملح» (إسماعيل، د.ت، ص 56). ويتضح ذلك من سيطرة بني خزر على الجزء الشمال الغربي من المغرب قبل قيام دولة الأدارسة بالمغرب سنة (172هـ/ 761م) (ابن خلدون، د.ت، ص 25).

وأن قبائل من زناتة اهتمت منذ البداية بطريق القوافل وهممنت على حركة التجارة وخاصة الذهاب إلى بلاد السودان. وسيطرت على بقية نواحي المغرب الأوسط بصحاريه الجنوبية (ابن خلدون، د.ت، ص 102)، وأنشأوا به مدناً أمست محطات تجارية حملت أسماء قبائل زناتة، وبسطت زناتة سلطانها وحمايتها على المسالك الصحراوية للتجارة مع بلاد السودان (الجناني، د.ت، ص 81، 85).

بما لها من خبرة تجارية مكنتها من الاحتفاظ بعلاقات تجارية حسنة مع المدن التي تعاملوا معها. وتمركزت قبائلها في واحة ميزاب الواقعة في الصحاري المغرب الأوسط، كما اتخذت زناتة بلاد الجريد مجالاً لحركة قبائلها حتى أنهم غلبوا عليها (إسماعيل، د.ت، ص 91).

شاركت القبائل بدور مهم في حركة القوافل التجارية أول ظهور الدول المستقلة، وبسط سلطانها على المناطق التابعة لها، ثم ضعفت الدولة المستقلة هناك حتى هيمنت القبائل على حركة التجارة، فما أن طوت القبائل أهم مصادر الدولة تحت سيطرتها حتى تطلعت للسلطة في هذه الدول، وأمست دولة بن رستم مطمئناً للطامعين، فتطلعت القبائل البدوية للسلطة بعد اختلال موازين القوى الاجتماعية في تاهرن (ابن الصغير، د.ت، ص 337).

وبعد أن حققت ثراء هائلاً واتخذت العبيد والخيول، مما أزعج أئمة بن رستم، وباتت تاهرن مركزاً تجارياً مرموقاً " واستعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى جميع البلدان" (أبو زكريا، د.ت، ص 19).

وعملت قبيلة بن يفرن على تولي كرسي الحكم في دولة بن رستم منذ عهد الإمام عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة - بيد أنه أحيط المحاولة بمساندة القبائل الأخرى، وحاولت القبائل الضاربة جنوب غرب تاهرن خلع طاعة الرستميين لاستخلاص السيطرة على طريق التجارة المارة في مضاربها، وإن لم تنجح المحاولة نجاحاً كاملاً، إلا أنها أضعفت سيطرة بن رستم لصالح قبائل هذه المنطقة (أبو زكريا، د.ت، ص 19).

وفي المغرب الأقصى كان تقسيم دولة الأدارسة بعد موت إدريس الثاني 212هـ في صالح قبائل المغرب التي دخلت في الصراع بين أبناء إدريس الثاني، كما تدخلت القبائل دولة بني مدرار في تعيين أمراء الدولة وعزلهم (السلوي، 1954، ص 157).

فكان عمل هذه القبائل حراساً للقوافل التجارية لانتشار اللصوص به وقطاع الطرق فيذكر أحد الرحالة أن قافلة كبيرة تزيد على ألفا من الإبل الموقرة ظلت من تلمسان تريد الخروج إلى المغرب الأقصى نحو ثلاثة أشهر حراس للقافلة فما أن تسنى لها حرس من أهل المنطقة مقابل مبلغ من المال حتى انطلقت إلى سبيلها (العبدري، د.ت، ص 278).

ويعني هذا أن حراس القافلة لم تكن ترافقها طوال رحلتها، وإنما تستأجر حراساً لها من قبائل المنطقة التي تمر بها لحمايتها لما لهم من سلطة وهيمنة على مضاربهم، فإذا ما انتقلت إلى مضارب قبيلة أخرى استبدلت حراسها بغيرهم من أهل المنطقة التي تعبرها، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن الصغير من استعانة أصحاب القافلة بزعماء من قبيلة زناتة لحماية القوافل من قطاع الطرق من زناتة (ابن الصغير، د.ت، ص 356).

كما يذكر ابن سعيد أن القبائل الضاربة على جبل نفوس كانوا أصحاب السلطة عليه، وكذلك كانت قبائل فزانة الضاربة حول طريق فزان كانم (ابن سعيد، د.ت، ص 124)، ويضيف ابن حوقل أن كل قبيلة من قبائل صنهاجة فرضت إتاوات على التجار المارين في مضاربها مقابل حماية قوافلهم (ابن حوقل، د.ت، ص 98).

و يذكر ابن خلدون: «إذا الأوطان كثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن يستحكم فيها، والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء وأن وراء كل رأي فيها عصبية تمانع دونها، لأن كل عصبية تظن في نفسها منعة وقوة» (ابن خلدون، د.ت، ص 25).

هذا فضلاً على أن كل قبيلة تأنف من الخضوع لحاكم من غيرها وسبب ذلك أنه لانيقاد أحد إلى حكم أحد من غير قبيلته، ومعلوم أن نظام القبيلة هو أساس النظام الاجتماعي في بلاد المغرب، ويوجد على قمة التنظيم القبلي شيخ القبيلة الذي يشكل المصدر الأساسي لكافة السلطات وأوامر رئيس القبيلة ملزمة لأفرادها؛ فإذا أمر فلا يخالف، وتطيع أفراد قبيلته ولا تعصي، لذلك ما أن استرضي رئيس القبيلة ضمنت القافلة العبور في مضارب قبيلته في جيرته وحمايته (منصور، د.ت، ص 49، 52).

4. الوكلاء التجاريون.

لقد عمل أفراد القبائل وكلاء تجاريون لتجار المغرب والمشرق في المراكز التجارية الواقعة على جانبي الصحراء، وهيمنت القبائل على التجار إذا ما قدموا مضاربهم، فقاموا بحمايتهم، وعملوا كأدلاء لهم في البيع والشراء، إذ يذكر البكري أن قبيلة بني ورتدى الضاربة في منطقة ملبلية كان أفرادها ما يدخل عندهم من التجار، فمن أصابته قرعة الرجل منهم كان تجره على يده، ولم يصنع شيئاً إلا تحت نظره وإشرافه محمية ممن يريد ظلمه، ويأخذ منه الأجر على ذلك ويأخذ منه الهدية لتزوله عنده" (البكري، د.ت، ص 88).

وكان للقبائل وكلاء تجاريون في بلاد السودان استقروا في غانة لمزاولة التجارة وخاصة الذهب، فيذكر لنا السلاوي أن التاجر المغربي إذا سافر إلى غانة بثلاثين جملاً رجع منها بثلاثة جمال أو جملين، واحد لركوبه، والثاني للماء، وأما ثمن أحمال الثلاثين جملاً يوضع فيها من الثير ما يملأ مزوداً واحداً (السلاوي، د.ت، ص 203).

وكذلك أن مخلص بن كيداد- والد أبي يزيد الذي ثار على الفاطميين واستقر بلاد السودان للعمل بالتجارة وتزوج من إحدى نساء كوكوا، واستمر قاطناً بها حتى بعد مولد أبنه أبي يزيد، وكان مخلص بن كيداد من قبيلة وارجلا التي أسست مدينة وارجلان وأطلق عليها اسمها (بن خلدون، د.ت، ص 51).

تلك المدينة ازدهرت بسبب حركة القوافل التجارية، وحازت أهمية تجارية كبيرة مع بلاد السودان (البكري، د.ت، ص 182؛ العدوي، 1970، ص 11: الحريري، 1987 ص 214).

عمل أهل ورجلان بقيادة القوافل التجارية إلى بلاد السودان (ابن خلدون، د.ت، ص 13)، وعمل مغل بن كيداد بالتجارة مع بلاد السودان أول الأمر (أبو الفداء، د.ت، ص 92)، فما أن عرف البلاد وتعرف على أهلها حتى استقر بها وتزوج من أهلها (ابن خلدون، د.ت، ص 13)، واشتغل وكيلاً تجارياً للقوافل القادمة من الشمال الأفريقي، إذ يتفق مع أهل البلاد على احتياجاتهم ليضمن توزيع البضائع القادمة ويجمع من بلاد السودان بضائعهم التي تعود بها القوافل إلى الشمال الإفريقي والمشرق والأندلس (إسماعيل، د.ت، ص 240).

وكان استقرار مغل بن كيداد في بلاد السودان عصر الدول المستقلة؛ إذ أنجبت له زوجته السودانية ولده أبي يزيد الذي تاجر مع أبيه في بلاد السودان حتى حوالي 270هـ/ 883م، فأشتغل بعد ذلك بالتجارة وصار قائداً محترفاً للقوافل بين الشمال والأفريقي وبلاد السودان حتى استقر في الشمال الإفريقي ليعد العدة للثورة على الفاطميين والتي أعلنها سنة 331هـ/ 943م (ابن خلدون، د.ت، ص 13؛ الدرجيني، د.ت، ص 44؛ ابن غداري، د.ت، ص 209).

ورصد المصادر لتاريخ حياة مغل بن كيداد وعمله لا يعني أنها حالة فردية، وإنما اعتنت المصادر بذكره بسبب ثورة ابنه أبي يزيد على الفاطميين، وإلا كانت أغفلته كما أغفلت غيره من الوكلاء التجاريين للقبائل في بلاد السودان، لأن التاريخ يدور في ذلك الحكام، وخاصة في تلك الفترة البكرة، التي لم يهتم فيها المؤرخون برصد تاريخ العامة إلا إذا ساندوا أو عاندوا السلطة الحاكمة، ومن ثم رصدت المصادر عمل مغل بن كيداد وكيلاً تجارياً لقبيلة في بلاد السودان وأغفلت غيره من الوكلاء التجاريين للقبائل. تتناثر المعلومات في كتب الطبقات خاصة عن وكلاء تجاريين لكبار التجار ما بين الشمال الأفريقي وبلاد السودان؛ ففي ترجمة الدباغ لأحد الفقهاء الذي توفي سنة 275هـ/ 792م يذكر أنه كان تاجراً وله وكيل تجاري يجمع له البضائع لتحملها القوافل الصادرة من الشمال الإفريقي إلى المشرق أو بلاد السودان (الدباغ 1988، ص 164)، وفي ترجمة أخرى يذكر أن أحد كبار التجار أتاه من طلب منه زيتاً فكتب له رسالة لوكيله في المنطقة الساحلية حيث يقطن الصالب ليعطيه ما أراد (الدباغ، 1988، ص 166).

مما يعني أنه كان لكل من التجار الكبار وكلاء في المناطق المختلفة للإتفاق على تصريف البضائع التي تأتي بها القوافل وتجميع البضائع التي تحملها القوافل وهي صادرة عن المنطقة.

وفي ترجمة الشماخي لأحد ولاة دولة بني رستم في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فيذكر أنه كان تاجراً يتردد على بلاد كانم من بلاد السودان، وأنه تعلم لغة أهلها (الطبيي، 1987، ص 376)، مما يعني أنه استقر في بلاد السودان لفترات طويلة أو عمل وكيلاً تجارياً لأن تعلم لغة أهل البلد يحتاج إلى فترات استقرار طويلة انذاك.

وشارك أفراد من القبائل يرأس مالهم في حركة القوافل التجارية، واشتهرت أسر بالعمل كتجار، ووزعت أفرادها على أهم مراكز التجارة في بلاد المغرب، واستقر منهم أفراد في بلاد السودان ليملكوا زمام حركة القوافل ويتبينوا أنواع البضائع المطلوبة، ومن هؤلاء ذرية عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي التي اشتهرت بالتجارة، واستوطنوا تلمسان، فأرسلوا أخاً لهم ليستقر في سجلماسة وأخوين في ايولان من البلد التكرور، فكان التلمساني يبعث إلى أخيه ايولان بخبرة بما يريد من السلع وأكثرها نفوقاً في بلاد

السودان، وبيعت له الأخير بالجلد والعاج والجوز والتير، أما أخوهم في سجلماسة، فكان يكتب لهما بأحوال التجار وأخبار البلدان، ومن ثم اتسعت تجارتهم وحققوا أرباحاً وفيرة (الأوجلي، 1998، ص 191).

ومن المعروف أن التجار في العصور الوسطى عندما كانوا يزاولون مهنة التجار بعيداً عن بلادهم، فإنهم عادة ما يمكثون لفترة من الزمن لعدة أدور تحتم عليهم ذلك، فالتاجر من غدامس أو طرابلس أو فزان أو من فاس عندما يسافر لغرض التجارة إلى السودان الغربي فإن مشقة الطريق التي يقطعها قد تنهك جزء من صحته وتفتي بعيره الأمر الذي يفرض عليه الاستراحة في المكان الذي يبيع فيه تجارته، وفي هذا المكان لابد له من بناء مسكن يقيه برد الشتاء وحر الصيف طيلة فترة إقامته كما أن ضعف راحلته قد يفرض عليه الإقامة ريثما يحصل على البديل أو يستحسن حالها.

وبما أن الغدامسيين من أكثر التجار وروداً على منطقة السودان الغربي (تشيكيتو) الأمر الذي يقتضي منهم إقامة حي يأوون إليه لأن البضائع قد تستمر أشهر بدون بيع، وقد يطيب للتاجر المقام في هذه البلاد، ويتحول إلى تاجر محلي، أو داعية للإسلام ومدرس إلى غير ذلك من الأعمال، وقد يتزوج من السكان الأصليين (الفيتوري، 1981، ص 25).

وحي الغدامسية التي تحت يصدده هو واحد من أرقى الأحياء في مدينة تمبكتو، يقع في جنوب شرق المدينة يبلغ طوله حوالي نصف كيلومتر تقريباً (السعدي، د.ت، ص 142)، وهو يعتبر من أهم الوكالات التجارية للتجار الليبيين.

يبدأ الاتصال التجاري بين الشمال الأفريقي وأفريقيا السوداء مع انتشار الإسلام في شمال أفريقيا، وعن طريق القوافل التجارية، وازدهرت حركة القوافل عبر بلاد المغرب، واجتازت الصحراء الكبرى إلى بلاد السودان عصر الدولة المستقلة، ويعد أحد الباحثين ذلك من أعظم أحداث العصر الوسيط، لأن القوافل ربطت تجارة العالم الإسلامي مع شبكات الشرق والبحر المتوسط، وفتحت عالم السودان بكامله أمام طرق المواصلات العالمية (زنيبر، د.ت، ص 164).

إن اعتماد الاقتصاد الإسلامي على التجارة حفّز على اختراق الصحراء الكبرى بهدف بلوغ بلاد السودان بحثاً عن الذهب أساس السياسة النقدية التي انصب اهتمام المسلمين عليها، إلى أن حركة القوافل بدأت في اجتياز الصحراء الكبرى في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وتم جلب الذهب من السودان آنذاك (زنيبر، د.ت، ص 168).

وجذب ازدهار التجارة الكثير من تجار العالم الإسلامي وغيرهم إلى الاستقرار في عواصم الدول والمدن التجارية الجديدة، فقد اتسعت تاهرت بسبب سكن الغرباء بها " فلا ترى دار إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد الثرويين ورحبتهم وهذا مسجد الكوفيين، وذلك بعد أن استعملت السبل إلى بلاد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة (ابن الصغير، د.ت، ص 324).

ويؤكد ذلك ما ذكره الشماخي بأنه انتقل إلى تاهرت "أهل الأموال والتجار من مصر وإفريقيا والمغرب (الشماخي، د.ت، ص 158)، ووفد عليها الكثير من تجار الأندلس واستقروا وسكنها مسلمون ومسيحيون ويهود بحثاً عن تحقيق الأرباح، وكذلك المدن التجارية الواقعة بالصحراء الليبية مثل زويلة وخدامس وفزان، فقد جذبت التجار من مختلف أنحاء العالم، لكونها المرفأ الصحراوي لذهب السودان، فسكنهن بها واستقروا فيها الكثير من التجار الغرباء من مختلف دول العالم الإسلامي والمسيحي (إسماعيل، 1977 ص 170).

إن ذلك نجم عنه ازدهار حركة القوافل عبر المغرب والصحراء الكبرى إلى بلاد السودان حيث الذهب والرقيق، فكيف كان تنظيم القافلة وكيفية مسيرها عبر الصحراء الليبية إلى بلاد السودان، وكيفية توزيع بضائعها وبيعها وبيعها أو استبدالها ومواصلة مسيرها في هذه المسافات الطويلة وما تتعرض له من أخطار وما تدفعه من ضرائب للدول وإتاوات للقبائل ومقدار ما تحققه من أرباح يدفعها إلى مواجهة مثل هذه المخاطر على النفس والمال.

5. تجهيز القوافل.

لم يكن في مقدور أحد التجار بصفة عامة تسيير قافلة، لما تحتاجه القافلة من إمكانيات مادية ومالية هائلة لا يملكها إلا أغنياء التجار وكبار الوسطاء وذلك لكثرة الاستعدادات المطلوبة من الدواب التي يجب البحث عنها وتجميعها، وكمية البضائع التي يجب حملها والأدلاء الذين يرافقونها، والوسطاء الذين يعملون على تصريف بضائعها أو استبدالها في الأسواق الكبيرة التي تمر بها، ناهيك عن الأفراد الذين يقومون بحمايتها (نصير، د.ت، ص 229).

لذلك فضل تجار الطرق البرية اتباع نظام المشاركة كنوع من أنواع الحماية، ولوجود الأسواق الكبيرة على طول الطرق التجارية، مما يزيد فرصة المتاجرة والربح، ووجود وكلاء للتجار على الطريق لتسهيل العمليات التجارية، والحماية ويشترك التجار معاً في تمويل القوافل براءوس أموالهم، ومن ثم اشتهرت عدد من البيوتات التجارية بتنسيق تسيير القوافل التجارية، ونقل سلعها وبضائعها إلى أماكن تصريفها، علاوة على القيام بدور الوساطة التجارية بين التجار وموكليهم، وعادة ما يشرف البيت التجاري على مهمة عقد الصفقات التجارية بين التجار، بل ويقوم بمهمة تجهيز البضائع، وتعيين قائد القافلة الذي تكون له كافة الصلاحيات أثناء الرحلة وفي مراكز تواجدتها في الأسواق (نصير، د.ت، ص 230).

اختلفت الآراء حول حجم القافلة وعدد ما تحويه من الإبل، فيرى فريق أن القوافل الكبيرة تزيد عن الألف من الإبل (العبدري، د.ت، ص 278)، ويرى فريق آخر أن القوافل الكبيرة تضم حوالي مائتين وثلاثين جملًا، أما القوافل الصغيرة فيصل حجمها إلى خمسين جملًا (نصير، د.ت، ص 231)، والأرجح أن تكون القافلة الكبيرة أكثر من الألف؛ إذ يذكر الدباغ أن قافلة كان بها سبعون حملاً من البر وكانت هذه الأحمال والأجمال لرجل واحد (الإيمان، د.ت، ص 312)؛ كما يذكر الإدريسي أن أهل أغمات من قبيلة هواره كان لكل تاجر منهم في القافلة مائة جمل (المشتاق، د.ت، ص 232).

ولكثرة تكاليف القافلة يزيد عدد التجار المشاركين فيها؛ لتقل التكاليف الخاصة بكل منهم، خاصة تلك التي تتعلق بالإدلاء، والإتاوات، وأجرة حماة القوافل.

أما ما ذكره أحد الباحثين بأن ابن خلدون ذكر في تاريخه أن القافلة تضم أثنى عشر ألف جمل ويمكنها أن تقتصر على بضع مئات (زنبير، د.ت، ص 182) فقد جانبه الصواب؛ لأن حقيقة ما ذكره ابن خلدون أنه كان يخرج من واركلان اثنا عشر ألف رحلة إلى بلاد السودان كل عام (العبر، د.ت، ص 52).

أما حمل الجمل الواحد في القافلة، فعادة ما يبلغ وزناً حمولته خمسمائة رطل. ومن ذلك يتبين حجم البضائع التي كانت تحملها القافلة ويسفر عن ازدهار حركة التجارة عبر الصحراء الليبية مع بلاد السودان (نصير، د.ت، ص 242).

لقد أعطت الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى بصفه عامة والصحراء الليبية بصورة خاصة ظروفاً أفضل لحركة القوافل، ففي بلاد المغرب تقتصر فترات النهار الحارة على بضع ساعات فقط، كما تنتشر المراعي والماء وتتقارب القرى، وفصل الشتاء تنشط حركة القوافل خاصة إلى مصر، بسبب توقف الملاحة في البحر المتوسط آنذاك، وكانت تأتي القوافل من سجماسة إلى مصر عن طريق القيروان، وكان يشار إلى تحركها "بيوم من الموسم" لأنها كانت تتحرك في مواسم معينة (تصير، د.ت، ص 232). وحملت القوافل بضائع تستبدلها في الأسواق الكبيرة التي تمر عليها ولتحقيق ذلك؛ كانت القافلة تحرص على إبلاغ نيا مجيئها وميعاد وصولها إلى الأسواق الكبيرة بيوم أو يومين، بإيفاد شخص يمتطي جواداً سريعاً، لإعطاء مهلة لتجار ذلك السوق لترتيب بضائعهم وسلعهم التي يريدون تسويقها نقداً أو مقايضة.

وتتمكث القافلة في كل سوق تجاري مدة يحددها قائد القافلة، تزيد أو تنقص حسب حجم القافلة وما تحمله من سلع، وما تتطلع إليه من تعامل تجاري بيعاً وشراء.

وربط الاتصال التجاري بين الأسواق الكبيرة في المدن وبين القرى والمناطق التي حولها جمهور من أصحاب الدواب (المقري، د.ت، 568)؛ وكان التجار المسافرون ينزلون بضائعهم بين أيدي الجالسين (أحمد، قرطبة، د.ت، ص 131-132) والدلالين، الذين يوزعونها على أصحاب الدكاكين، وينزل التجار بالفنادق والخانات التي تعددت على طول الطرق التجارية وفي المدن التجارية، وكانت الفنادق والخانات منشأة تجارية ومؤسسة لخدمة التجار، وبنيت بطريقة تلائم الغرض من إنشائها، وهو إيواء التجار بسلعهم ودوابهم وعرفت في العصور الوسطى باسم «فنادق مبيت القوافل» (رنير، د.ت، ص 181).

قد تعددت الطرق التجارية للقوافل عبر الصحراء الليبية إلى بلاد السودان كما سبقت الإشارة، بينما تشابه هذه الطرق فيما تلاقيه القوافل من مصاعب، وما تعرض له من أخطار علاوة على أن اجتياز الصحراء ارتبط بفصل معين؛ إذ يذكر ابن حوقل أن الصحراء الكبرى "مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه متعددة المراعي؛ لا تسلك إلا في الشتاء، وسالكها في حينه متصلة السفر دائم الورد والصدور" (ابن حوقل، د.ت، ص 100).

وكانت القوافل تسير في بحر من الرمال لا يستطيع مقارعته الأ من خير مجاهل الصحراء فإذا ما ضلت قافلة كان هلاكها في تلك الرمال أمراً محتوماً؛ لذلك كان تجار زويلة وفزان يتوعدون بعضهم البعض على الخروج إلى كوار أو سجماسة، ثم يتفقون مع تجار البلدة التي يأتون إليها للخروج في قافلة واحدة (ابن بطوطة، د.ت، ص 673)، وكذلك كانت القوافل الصادرة من السودان وتحمل القافلة البضائع المطلوبة من بلاد السودان وخاصة الملح (القلقشندي، د.ت، ص 276).

إما بقية البضائع التي تحملها القوافل، فكانت تقتصر على البضائع التي يمكن حزمها على ظهور الإبل، وتحمل مدة السفر الطويل والمناخ الحار، ومن ثم فإن السلع سريعة التلف لا مكان لها في تجار العبور الصحراوية (نصير، د.ت، ص 242).

وتكثر القوافل الأدلاء، وتكثر من حملة المياه ويصطحبون معهم مماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب الذهب وبلاد السودان (الحموي، د.ت، ص 12).

تنطلق القوافل في وقت مبكر، وتواصل المسير حتى يشتد الحر وتشتع الأرض حرارة يصعب احتمالها؛ فتتوقف القافلة وتفرغ حمولة الإبل من ظهورها، وتنصب الخيام بحثاً عن ظل يقيم لهيب الشمس، فما أن تميل الشمس إلى المغيب حتى تعاد الأحمال،

وتستمر القافلة في المسير إلى الليل، ويصف الإدريسي طريقة سير القوافل في الصحاري، بأنه يحدث توقف يومي في الساعات الحارة جداً من اليوم (الإدريسي، د.ت، ص 312).

ويؤكد ذلك ما ذكره ابن بطوطة الذي رافق قافلة من سحلماسة إلى بلاد السودان، فيقول إنهم كانوا يرحلون بعد صلاة العصر ويسبرون الليل كله، ولا يتوقفون إلا عند اشتداد الحر في الصباح (ابن بطوطة، د.ت، ص 676).

وتتوقف القوافل فترات للراحة الضرورية للدواب وهي يوم لكل ثلاثة أيام (الإدريسي، د.ت، ص 313)، وكانت القوافل تتوقف عند الآبار والمراعي؛ ومن أجل التبادل التجاري مع أهل المناطق لأهله من الصحاري (زكي، د.ت، ص 10)، ويكون ذلك في الغالب الأعم لحاجة القوافل إلى الطعام مثل اللحم المجفف والزبدة واللبن، وما تحتاجه الإبل والخيول من معدات، أو ما تحتاجه القوافل من الملح مثلما يوجد بمنطقة تغازي الذي يحفز أهل المنطقة عليه، ويبيعونه للقوافل الصادرة إلى بلاد السودان (ابن بطوطة، د.ت، ص 874).

وربما أكرهت القوافل على التوقف بسبب هبوب العواصف؛ إذ يذكر أحد الباحثين أن قافلة اضطرت للبقاء في إحدى مدن الصحراء ثمانية أيام بسبب هبوب العواصف، وهي رياح جنوبية معروفة برياح السيركو (نصير، د.ت، ص 234). يمثل الماء الذي تحتاجه القوافل أكبر المشاكل عبر الصحراء؛ لأن آبار المياه على مسافات متباعدة، ومن ثم يملأون أسقيتهم بالماء بيد أنهم يتعرضون لرياح السموم التي تبخر الماء داخل الأسقية (الحموي، د.ت، ص 12)، ومن ثم فإنهم يخبطون على أسقيتهم التاليس (وهي أوعية من الخوص) (ابن بطوطة، د.ت، ص 675).

لتكون عازلاً بين الرياح الحارة وأسقيتهم؛ فلا يتبخر ماؤها بسرعة؛ كما تصطحب القوافل معها "جمالاً خالية لا أوقار عليها يعطشونها قبل ورودهم على الماء، ثم يسقونها نهلاً وعللاً إلى أن تمتلئ أجوافها، فإذا ما نشف الماء في أسقيتهم واجتاحوا. إلى الماء بحر جمالاً وترمقوا بما في بطنه. وأسرعوا السير حتى يردوا مياهها أخرى يملأون منها أسقيتهم (ياقوت، د.ت، ص 12). لذلك حرصت القوافل على تخير الأدلاء الذين خبروا أكل المسارات في الصحاري، واشتهر الأدلاء في قبيلة مسوقة، وفضلت القوافل التعامل معهم، لدربتهم على مسالك الصحراء ومعرفتهم الواسعة بمفاذاتها علاوة على إجادتهم الأعمال التجارية (نصير، د.ت، ص 236).

ما أن تقترب القوافل من اجتياز الصحراء وقرب الوصول إلى مدينة إيولاتن أول عمالة السودان، فإنها تبعث بالتكشيف وهو اسم يطلق على رجل يكرهه أصحاب القافلة، ليسبق القافلة إلى إيولاتن، ومعه خطابات من التجار إلى أصحابهم بها، ليأجروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء، وتبلغ أجرة التكشيف مائة مثقال من الذهب (ابن بطوطة، د.ت، ص 675).

ما أن تصل القافلة إلى إيولاتن حتى يجعل التجار بضائعهم وأمتعتهم من رحبة، ويتكفل رجال من السودان بحفظها، ويتجه التجار إلى نائب السلطان الذي يخاطبهم من خلال ترجمان، ثم يستضيفهم مشرف إيولاتن حتى ينتهوا من استبدال بضائعهم (ابن بطوطة، د.ت، ص 676-677).

بيد أن بعض المصادر تذكر أنه ما أن تصل القافلة إلى بلاد السودان حتى تضرب الطبول ليسمع بها أهل السودان فيخرج التجار ببضائعهم، ويضع كل منهم بضاعته حسب أصنافها، ثم يتركون الموضع على مسافة مرحلة، يأتي السودانيون ومعهم التبر

ويضوعون إلى جانب كل صنف منها مقداراً من التبر وينصرفون، ويعود التجار؛ فيأخذ كل منهم ما وجد بجانب بضاعته من التبر (الحموي، د.ت، ص 12).

لم يكن اجتياز الصحراء أمراً سهلاً ولم تكن مفاوزها مياهاً وشدة حرارتها ومشاكل التموين ومخاطر قطاع الطرق الصعوبات الوحيدة التي تواجه القوافل، كما لم يكن إكتراء الأدلاء والحراس والتكشيف والإتاوات التي تدفعها للقبائل هي كل التكاليف المالية التي يتحملها أصحاب القوافل؛ فقد تعرضت القوافل للضياع بسبب هبوب الرياح أو الانزلاق إلى مناطق الرمال المتحركة حيث تسوخ الأقدام والأرجل (زنيبر، د.ت، ص 182)، إذ يذكر الدباغ أن قافلة خرجت من القيروان قاصدة المغرب الأقصى؛ فلم تبلغه، لأنها "نزلت في بعض الرمال، فأسفت عليهم الريح، فدفتهم أجمعين" (الدباغ، د.ت، ص 312).

وزادت تكاليف القوافل المادية بما كان يفرضه عليها حكام الدول من ضرائب وما يبتزّه موظفونهم من التجار، إذ يذكر ابن حوقل أن موضفي جمع الضرائب من القوافل كان لهم «من وراء ما يقبضه السلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان» (ابن حوقل، د.ت، ص 70).

ومن لم يذعن لدفع الإتاوة يتعرض لنقمة هؤلاء الموظفين التي بلغت حد الضرب المبرح؛ إذ قدم أحد التجار شاكياً أحدهم ووجهه وثيابه ملطخة بالدم (الدباغ، د.ت، ص 190).

وكانت الضرائب التي تفرضها الدولة على القوافل كبيرة، فكانت جباية سجلماسة مثلاً من حركة التجارة، فقد بلغت زهاء أربعمئة ألف دينار في العام (ارشيبالد، 1960، ص 331)، وفرض ملوك السودان ضرائب على القوافل، أخذ ملك غانة دينار على حمل الملح الداخل إلى بلده، ودينارين على الحمل الخارج منها (ابن حوقل، د.ت، ص 97).

وكان له على حمل النحاس خمسة مثاقيل ذهباً، وحمل المتاع عشرة مثاقيل (زنيبر، د.ت، ص 180)، ويبدو أن الضرائب التي فرضتها الدول كانت كبيرة، إذ عمل بعض التجار على التحايل للهروب في دفع هذه الضرائب، بإدخال بضائعهم خلسة أو بمساعدة صغار الموظفين دون معرفة جامعي الضرائب (نصير، د.ت، ص 231).

رغم كل هذه الصعوبات والمخاطر والإتاوات والضرائب والرشا لم تتوقف حركة القوافل؛ إذ انتصرت الرغبة في الربح على كافة صعوبات ومخاطر السفر الطويل؛ لأن السلع التي حملتها القوافل حققت عائداً مجزياً غطى تكلفة الجهد ومصروفات الرحلة ومخاطر الطريق، علاوة على ما حققته من أرباح عالية (زنيبر، د.ت، ص 178).

حتى إن هؤلاء التجار بلغوا مبلغاً كبيراً من الثراء؛ إذ يذكر ابن حوقل أنه رأى صكاً لأحد تجار أودغشت على أحد تجار سجلماسة بمبلغ اثنين وأربعين ألف دينار، ويتعجب من ضخامة هذا المبلغ بقوله! "وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبيهاً ولا نظيراً ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فإستطرفت" (ابن حوقل، د.ت، ص 97).

واستخدام الصكوك دلالة على تطور حركة التجارة وبلوغها حد بعيداً من الضخامة، ولا شك أن هذا الثراء ناجم عن ذهب السودان.

ويقدم لنا ابن خلدون تفسيراً لتحقيق هذا الريح الوفير في حركة القوافل بقوله "إذا نقل السلع من البلد البعيد المسافة، أو في شدة الخطر في الطرقات، يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحاً وأكفل بجواله الأسواق لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها؛ فيقل حاملوها ويعز وجودها، وإذا عزت وقلت غلت أثمانها،.... ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم حالاً؛ لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش؛ لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة يهتدي إليها أدلاء الركبان؛ فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس؛ فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع إليها الغنى والثروة من أجل ذلك" (ابن خلدون، د.ت، ص 331-332).

9- قائمة المراجع

- ابن الصغير، (د.ت). أخبار الأئمة.
- ابن الرقيق، (د.ت). تاريخ إفريقية.
- ابن خلدون، (د.ت). العبر. ج 6
- ابن سعيد، (1953). المغرب في حلى المغرب. تحقيق زكي حسن وآخرون.
- أبو زكريا، (د.ت). السيرة وأخبار الأئمة.
- السيلوي، أحمد بن خالد الناصري (1954). الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى. تحقيق جعفر الناصري، الدار البيضاء. ج 1
- ابن حوقل، (د.ت). صورة الأرض.
- منصور، عبدالوهاب (د.ت). قبائل المغرب.
- العدوي، (1970). بلاد الجزائر. القاهرة.
- الحريري، محمد عيسى (1987). الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي. الكويت: دار القلم.
- أبو الفداء، (د.ت). المختصر. ج 2
- الدباغ، أبو زيد عبدالرحمن (1988). معالم الإيمان في معرفة أهل القبروان. تحقيق إبراهيم شيوخ ومحمد ماصنور، القاهرة.
- الطيبي، أمين (1987). وصول الإسلام وانتشار في كنم-برنو. مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع 4. طرابلس.
- الأوجلي، الشيخ محمد الصالح بن سليم (1998). السدير الفاتح المنتخب. تحقيق محمد بشير سويي، منشورات مركز جهاد الليبي، طرابلس.
- الفيتوري، أحمد (1981). الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان. مجلة بحوث التاريخية، منشورات مركز جهاد الليبي، ع 2.
- السعدي، (د.ت). تاريخ السودان.
- زنبير، (د.ت). تجارة القوافل.

- الشماخي، (د.ت). السير.
- إسماعيل، محمود (1977). مغربيات.
- نصير، رجب (د.ت). مدينة مرزق.
- معالم الإيمان. ج 1.
- نزهة المشتاق. ج 3.
- المقري، (د.ت). نقح. ج 1.
- أحمد، الطاهر (د.ت). عامة قرطبة.
- الحموي، ياقوت (د.ت). معجم البلدان. ج 2.
- ارشيبالد، لويس (1960). القوي البحرية في حوض البحر المتوسط. ترجمة أحمد عيسى، القاهرة.
- ابن خلدون، (د.ت). المقدمة.
- العبدري، (د.ت). الرحلة.
- الأبيض، رجب (د.ت). مدينة مرزوق.
- أحمد، عز الدين، (د.ت). النشاط الاقتصادي.
- الأدرسي، (د.ت). نزهة المشتاق. ج 3.
- أوليفر، (د.ت). موجز تاريخ افريقية.
- البستاني، (د.ت). دائرة المعارف. ج 6.
- البكري، (د.ت). المغرب.
- بوفيل، (د.ت). تجارة الذهب.
- الجوهري، (د.ت). شمال افريقيا.
- الدرجيني، (د.ت). طبقات. ج 1.
- زكي، عبدالرحمن (د.ت). تاريخ الدولة الإسلامي بإفريقية الغربية.
- القلقشندي، (د.ت). صبح. ج 5.
- مجهول، (د.ت). الاستبصار.
- محمود، حسن أحمد (1957). قيام دولة المرابطين. القاهرة.
- مؤنس، حسين (د.ت). فزان ودورها.
- اليعقوبي، (د.ت). البلدان.
- ابن عذاري، (د.ت). ج 2.

-
- ابن سعيد، (د.ت). المغرب. ج 2.
 - إسماعيل، محمود (د.ت). الخوارج.
 - ابن بطوطة، (د.ت). الرحلة.
 - معلول، سالم (د.ت). دور واحدة أوجلة.
 - بوفيل، (د.ت). تجارة الذهب.
 - حسنين، أحمد (د.ت). الرحلة.
 - نعيم، شقير (1992). جغرافية وتاريخ السودان. بيروت: دار الثقافة.
 - لايون، ع. ف (1993). مدخل إلى الصحراء. ترجمة الهادي بولقمة، جامعة قاريونس: بنغازي.
 - الجنجاني، (د.ت). دراسات.